

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

تمت صورة هذا البحث ، في معاملة العامة التي يراها القارئ بين دفتي هذا الكتاب ، في سنة ١٩٥٠ م . ولقد كان تقادم العهد ، ومُضيّ سنواتٍ عَشْرٍ ، في مثل هذه الحياة المتجدّدة النامية التي نحيّاها ، فنلتني منها في كلِّ يومٍ جديداً : يُعَفِّي على ما قبله ، ويبرز ما سبقه — كان ذلك حَرِيّاً أن يصرفني عن نشر هذا البحث . غير أن من عَجَب أن يكون هذا السبب نفسه هو الذي حفزني إلى نشر الكتاب ، وإن كان يبدو — في ظاهره — مدعاةً إلى طيِّه ، وبيان ذلك في جملة أمور ، يُغني توضيح بعضها عن سائرها ، فنها :

أني كنتُ — بعد إتمام هذا البحث — أتبعه وأتقرّاه في كلِّ ما كنتُ أقرأ وأبحث خلال هذه السنوات العشر . فكنتُ حين أقف على نصٍّ يتصل بهذا الموضوع — وأنا أقرأ عن غيره — أبادر إلى تقييده . ولقد جدّدتُ صلتي خلال هذه المدّة بكلِّ ما كنتُ قرأتُ من مصادر من قبل ، وأعدتُ قراءتها مرّةً ومرتين ؛ ثم اتّصل ما بيني وبين مصادر أخرى كثيرة اقتضت حياثي العلميّة : التدريسيّة والدراسيّة ؛ أن أتصل بها ، وخاصّةً حين كنتُ أجمع مادّةً بحثي عن « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخيّة »^(١) ، أو حين عكفتُ على تحقيق بعض تراثنا القديم ، وخاصّةً بعض دواوين الجاهليّة . وأشهد أن ما وصلتُ إليه من ذلك كلّّه زادني اطمئناناً إلى قيمة هذا البحث عن « القيان والغناء في الجاهليّة » في مادته وفي منهجه معاً . فلم يوصلني البحث الدقيق والتتبع المستقصى ، طوال

(١) طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦ .

هذه السنوات ، إلى شىء يدعو إلى تغيير بناء هذا البحث ، أو تعديل خطته ؛ بل لم أصل في أجزاء مادته إلى جديد لم أكن قد أثبتته من قبل . سوى أمور يسيرة استدركتها على البحث ، وأفرغتها في مواطنها منه .

ثمّ إني نظرتُ في هذا العصر الجاهلى . وفيما كُتِبَ عنه وألّفَ فيه . فوجدته لا يزال على العهد به : مغلقةً جوانبه ، وعرةً سُبُلُه ، عسيراً مرتقاه . حتى تهيبه جمهرة الدارسين والباحثين . فلم يكد يترك أبوابه منهم سوى نفرٍ قليل ، بل أقلّ من القليل ، اكتفوا بأن يربأوا على شرف بعيد . فيصنفوا لقومهم جوانب منه كانوا يظنونها قفاراً غامرة ، فإذا بها في الحقيقة مرعة خصبة تروج بألوان زاهية من الحياة .

ومن أجل هذا كان كلُّ بحثٍ عن العصر الجاهلى — إذا اجتمعت له وفرة المادة وسلامة المنهج — مشاركةً واجبة تفرضها طبيعة حياتنا اليوم . في تطلّعها المُلِحّ إلى المعرفة ، ولا سيما معرفة حقيقة قومنا في أمسهم . وتتبعهم في تاريخهم — منذ أن كان لهم تاريخ — تتبّعاً نلتمس به نفوسنا . ونتقرّى منه كياننا ، ونذكر فيه مقوماتنا ، فنستطيع بهذه المعرفة أن نشقّ حاضرنا إلى غدنا ، عن هدى وبصيرة . وفي ثقة وإيمان .

* * *

وقد حاولت جاهداً أن ألزم نفسى حدود المنهج العلمى . فاتّبعْتُ ثلاث سبل :
أولها : الجمع المستقصى لمادة البحث ونصوصه . وأحسبُ ما جمعته منه يجعلنى أطمئنّ إلى الجهد الذى بذلته ، وسيبين تفصيل ذلك فى حديثى عن المصادر .
وثانيتهما : التحقيق الدقيق لهذه النصوص . فكنتُ فى أكثر الأحيان أقابل النصّ فى الطبقات المختلفة للكتاب . وكنت ، حين أجد نصّاً فى بعض المصادر مروياً عن مؤلف سابق ، أحاول البحث فى كتب المؤلف العلىّ أعثر على النصّ فى منبعه . وكنت ، حيناً آخر ، لا أكتفى بالكتاب المطبوع وإنّما أبحث عمّا أستطيع العثور عليه من مخطوطاته ، فأقابل المطبوع بالمخطوط ، وأثبت ما

أصل إليه من فروق ، مع ترجيحي لأحد النصين . ثم إني حرصتُ على أن أسوق جميع النصوص التي تتصل بالموضوع مؤيدة أو مناقضة . فأناقشها مناقشة فيها شيء من سعة ، فإذا استقامت مع ما أذهب إليه كانت سنداً يدعمه ويقويه ، وإلا رددتُ عليها بما يظهر لي من وجوه الرأى . واكتفيت ، في مواطن قليلة ، بإثبات النصين المختلفين والتنبيه على وجوه الخلاف . حين كان يعجزني التوفيق بينهما أو تفنيد أحدهما .

وثالثها : دراسة هذه النصوص دراسة تقوم على دعمتين : فهم النصوص فهماً فيه استشفاف لها وسببرٌ لأغوارها ، ومحاولة التعليل والتفسير وإرجاع الفروع إلى أصولها والظواهر إلى أسبابها . وكنت أحاول أن أستقي لذلك كله أسباباً من البيئة حوله ، فأربط بين الظاهرة والحياة الاجتماعية والاقتصادية التي انبثقت منها .

* * *

أما مصادر هذا البحث فكثيرة متشعبة ، لم أسجل منها في ثبت المصادر إلا أقلها . فما أكثر ما قرأت ثم طويت من غير أن أستقي منه حرفاً لهذا البحث ، وما أكثر ما قرأت ثم طويت ولم أخرج منه إلاً بفكرة عامة تتصل من بعيد بالموضوع اتصالاً قد يلمس جنباته وحفافيته ، ولكنه لا يعدوها ؛ ثم ما أكثر ما قرأت وطويت ولم أقبس منه إلاً نصاً أو نصين ربّما كنت قد عثرتُ عليهما في مصدرٍ غيره ، وتكرّرا في هذا المصدر من غير أن يضيفا جديداً .

ولو بوّبتُ هنا المصادر والمراجع التي ذكرتها في هذا البحث لوجدتها على خمسة أضرب :

أولاً : كتب الأغاني والموسيقى .

ثانياً : كتب التاريخ العامة والسيّر والطبقات والرجال والجغرافيا .

ثالثاً : كتب الأدب واللغة .

رابعاً : دواوين الشعراء الجاهليين ، وما تفرّق من شعرهم في المجموعات الشعرية .

خامساً : كتب المستشرقين الإنجليز .

وقد بدأت بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، فوجدته - على غزير مادته وكبير نفعه في العصر العبّاسي ، وربّما في العصر الأموي - لم يُعْنَ بالعصر الجاهلي إلاّ عناية المُعَدِّر ، ولم ينهل منه إلاّ كَحَسَّو الطَّيْر . وكان في ذلك عَجَباً قَلَقاً ، لا يكاد يطمئنّ به حديث عن العصر الجاهلي حتى يسرع الخطو إلى العصر الأموي أو العبّاسي .

فلمّا أتممتُ الكتاب عزمت على قراءة تاريخ العصر الجاهلي عامّةً لأمرين ، أولهما : لأجمع منه أخبار القيان والغناء خاصة ؛ وثانيهما : لأستبين حياة القوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة .

فقرأت الطبري والمسعودي وابن خلدون ، وابن هشام ، ومتفرقات من ابن سعد وابن حجر . ثمّ بدا لي أن هذا التاريخ لا يتمّ إلاّ بقراءة الكتب الجغرافية عن الجزيرة العربية ، ففيها كثير من الأخبار التاريخيّة والروايات الأدبيّة ، وفيها بعد ذلك ما يساعدني على فهم البيئّة الجغرافيّة الطبيعيّة للجزيرة ، فقرأت صفة جزيرة العرب للهَمْدَانِي ، وأجزاء متفرقة من المكتبة الجغرافية التي نشرتها مطبعة بريل في لَسِيدِن : كالأعلاق النفسية لابن رسته ، وكتاب البلدان لابن الفقيه ، وكتاب البلدان لليعقوبي ، ومسالك ابن خرداذبة ، ثمّ أتبع ذلك بقراءة ما كتبه المؤرّخون والجغرافيون اليونان عن العرب ، فقرأت : هيرودوتس وديودورس الصقلي وسّرابو .

وما إن أنهيت ذلك كلّهُ حتى عَقَبْتُ بكتب الأدب العامّة ، من أمثال : كتب الجاحظ ورسائله ، وخاصة البيان والتبيين ، والحَيَوَان ، ورسائله عن القيان وطبقات المغنّين ؛ وكتاني ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، وعيون الأخبار ؛ وعقد ابن عبد ربّه ؛ وعمدة ابن رشيق ؛ ثمّ قرأت الموسوعات العامّة المتأخّرة : كمسالك الأبصار لابن فضل الله العُمَرِيّ ، ونهاية الأرب للنوَيْرِيّ .

وانتقلت بعد ذلك إلى كتب الموسيقى والغناء العربية ، فرجعت إلى فهرس الفنون الجميلة في دار الكتب، وإلى نشرة كان القسم الأدنى فيها قد أصدرها حينما انعقد المؤتمر الموسيقي الأول في القاهرة سنة ١٩٣٢ .

وأبتعتُ ذلك بقراءة الشعر الجاهلي نفسه في الدواوين، وفي المجموعات الشعرية : كالمفضليات ، والحماسة ، وجمهرة أشعار العرب ، غير ما تجمع لدي منه في أثناء قراءتي كتب التاريخ والأدب العامة .

وحين استقامت بين يديّ مادةُ البحث ومنجهه ، ختمتُ هذا التطواف بالرجوع إلى كتب المستشرقين الإنجليز ، لعلّها تفتح لي آفاقاً جديدة لم أفطن إليها ، أو لعلّها تدلّني على مصادر عربية لم أعرّ عليها . وقد رجعت إلى بعض كتبهم العامة في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية عند عرب الجاهلية ، فقبست منها قبسات أشرت إليها في هوامش البحث .

وإنّما يعينني في هذا المجال أن أخص منها بالذكر أحد كتب الأستاذ هنري جورج فارمر H.G. Farmer ، وهو كتابه عن تاريخ الموسيقى العربية History of Arabian Music ، نال العصر الجاهلي منه صفحات معدودات في أوله . وقد عنيتُ بقراءة الصفحات عناية دقيقة لما عُرِف عن المؤلف من التخصص العميق في الموسيقى العربية وتاريخها . فناقشت بعض آرائه مناقشة قادنتني إلى الاختلاف معه في بعضها . وقد أفدت كثيراً من المصادر التي أشار إليها في هوامشه .

وخلصت من ذلك كله إلى ملحوظة عامة : فقد وجدتُ أن جُلّ الضربين الثاني والثالث من المصادر - وهي الأدبية والتاريخية - لم تفرد باباً أو فصلاً خاصاً للغناء والقيان ، وإنّما نثرت الحديث الموجز عنهما نثراً متباعداً في أقطارها ، والقليل القليل من هذا النثر يتصل بالعصر الجاهلي ، وكثير منها خلا حتى من الإشارة العابرة إلى الغناء والقيان . ولا تتسع هذه المقدمة الموجزة للحديث عن كلّ كتاب مفرداً ، ولكنني سأعرض لأمثلة نفي بالعرض :

فأمّا كتب التاريخ عامّةً فليس فيها إلاّ إشارة عابرة تتكرّر فيها جميعاً عند المناسبة التاريخيّة لها : كالإشارة إلى الجرادتين عند الحديث عن عاد ، والإشارة إلى قينتي ابن خَطَل عند الحديث عمّن أمر الرسولُ ، صلّى الله عليه وسلّم . بقتلهم يوم الفتح . وأوسع من ذكر الغناء من المؤرخين اثنان : المسعودى فى مروج الذهب ، حينما نقل حديث ابن خرداذبة فى حضرة المعتمد . وفيه إشارات إلى أوّل من اتخذ آلات الطرب من الأقوام المختلفة ، وإلى أنواع الإيقاع وضروب الغناء عند العرب . وابن خلدون . وقد تحدّث عن علاقة الغناء بالعمران . وأشار إلى ضروب الغناء فى الجاهليّة إشارة وقفتُ عندها وناقشتها .

وأما كتب الأدب العامّة فيقتصر حديثي على خمسة منها :

فالجاحظ قد أغفل الغناء فى كتابيه الجامعين : البيان والتبيين ، والحيوان ، إغفالاً عجيباً . ما عدا إشارة عابرة استطرد إليها نَبَهاً فى كلّ منهما . واكتفى . كما يبدو ، بما أفرد من الرسائل عن الغناء . وهما : رسالة القيان ، وطبقات المغنين . وكلتاهما تُغفلان العصر الجاهلى ولا تذكران عنه إلاّ جملة واحدة قصيرة عن قينتي ابن جُدعان .

أما ما أفرد من هذه المصادر فصلاً عن الغناء والقيان فأربعة كتب : عيون الأخبار ، والعقد ، ومسالك الأبصار ، ونهاية الأرب .

أفرد أوّلها باباً سمّاه « باب القيان والعيان والغناء » — من كتاب النساء — حشره كلّهُ فى خمس صفحات ليس فيها حرف واحد عن العصر الجاهلى .

وعقد ثانيها — وهو عقد ابن عبد ربّه — كتاب الياقوتة الثانية فى علم الألحان . ولم يستطع العصر الجاهلى أن يحظى منه بغير سطرين اثنين ذكر فيهما قينتي عاد .

وأما مسالك الأبصار فقد أفرد مجلداً كاملاً وبعض مجلد — ما زالاً لمخطوطين — عن الغناء والمغنين والقيان . ومع أن ابن فضل الله العمري يذكر فى مقدمته (١)

(١) مسالك الأبصار — نسخة مصورة بدار الكتب المصرية (٥٥٩ معارف عامّة) الجزء

أنّه اطّلع على ما « ذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الجامع وفي كتاب الإماء ، وما ذكره ابن باقيا النحوي البغدادي في كتاب المحدث ، ثمّ ذيل ذلك بما نظره في الكتب والتقطه منها النقاط الفرائد من السحب » مع ذلك . ومع أنّه فصلّ القول في المغنين والمغنيات في العصور الإسلاميّة وفي المواطن المختلفة حتى عصره ، فإنّه لم يذكر عن العصر الجاهلي إلاّ أسطراً معدودات حينما تحدّث عن ابن جدعان وجرادتيه ..

وفي نهاية الأرب فصل طويل استغرق أكثر من ثلثمائة صفحة ، مائة منها عن إباحة الغناء وتحريمه ، أكثره منقول عن الغزالي ، وتحدّث في باقي الفصل عن المغنين والمغنيات حديثاً مفصلاً أكثره منقول عن أبي الفرج ، وليس فيه كذلك عن الجاهليّة إلاّ قصة جرادتي ابن جدعان ، وشعر أميّة بن أبي الصلت فيه .

وأما كتب الغناء والموسيقى - غير أغاني أبي الفرج - فجلّها مخطوط ، وهي جميعاً تبحث في الموسيقى من الناحيتين النظريّة والعملية عامةً ، ولا تتحدّث عن العصر الجاهلي إلاّ إشارات عجفاء لا طائل منها . وسنعرض بالحديث المفصل لأحدها وهو كتاب « حاوي الفنون وسلوة المخزون » لابن الطحّان الموسيقي ، في ملحق خاصّ آخر هذا الكتاب ، نحقق فيه فصلاً من هذا المخطوط جمع فيه أسماء بعض قيان الجاهليّة .

* * *

وقد يجدر بي أن أشير هنا إلى كتابين لكتابين معاصرين : أحدهما للأستاذ فايد العمروسي عن « الجوارى المغنيات »^(١) ، وثانيهما للدكتور جبّور عبد النور عن « الجوارى »^(٢) . وكلاهما طريف ممتع ، يبين عن جهد صاحبه ، ولكنهما في غير هذا العصر الذي ندرسه ، فالأستاذ العمروسي فصلّ القول في قيان العصرين الأموي والعبّاسي ، ولكنّه لم يعرض لقيان العصر الجاهلي إلاّ في أربع صفحات

(١) طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٥ .

(٢) طبع دار المعارف بمصر ، رقم ٥٩ من سلسلة اقرأ .

استهلها بقوله^(١) : « والباحث عن الغناء في الجاهلية لا يجد منه إلاّ النادر جداً ... وأمّهات الكتب العربية الأدبية ، وأقواها حجّةً في هذا الباب وهو الأغاني لم يحدثنا عن الغناء في الجاهلية إلاّ بقدر يسير » . وكذلك فعل الدكتور جيتور عبد النور ، فهو يصوّر لنا حياة الجوّاري وما يتّصل بهنّ في المجتمع الإسلامي ، ولا سيّما العصر العبّاسي ، ولا يكاد يُلمّ بالعصر الجاهلي إلاّ إشارات عابرة^(٢) .

* * *

فلست مغالياً إذن ، بعد الذي قدّمْتُ ، إذا ذكرت أن مصدرى الأول في هذا البحث لم يكن هذه الكتب على اختلافها ، بل لم يكن كتب الأغاني والموسيقى ، وإنّما مصدرى الأوّل هو : الشعر الجاهلي ، الذي حاولت دراسته دراسة فيها شيء من سعة وعمق ، واستبنتُ منه ثلاثة أمور هي لبّ البحث :

الأول : كثرة القيان في العصر الجاهلي كثرة واضحة ، وانتشار الغناء انتشاراً واسعاً .

والثاني : رُقّي الغناء في هذا العصر ، وتَرَفُّ القيان في الملبس والزينة ، وازدهار مجالس غنائهنّ بألوان من مظاهر الحضارة المترفة .

والثالث : وهو موضوع فصول الباب الثاني ، أثر القيان والغناء في الشعر والشعراء الجاهليين عامّةً ، وتطبيق ذلك على الأعشى خاصةً .

وأرجو أن يكون ما أرساه البحث من أصول ، وما حقّقه من نتائج ، شفيحاً لمؤلّفه فيما قد يكون انزلق إليه من خطأ أو غاب عنه من صواب . وعسى أن تتاح لهذا البحث جهود أخرى تتعهّده حتى تشرف به على ما يقرب من الغاية .

ناصر الدين الأسد

(١) ص : ١١ .

(٢) وقد عقد الدكتور أحمد محمد الحوفي فصلاً من كتابه « المرأة في الشعر الجاهلي » (مكتبة نهضة

مصر سنة ١٩٥٤) بعنوان : المرأة المغنية ، من ص : ٤٣٨ إلى ص : ٤٦٥ .